امنع الخمرة عني!

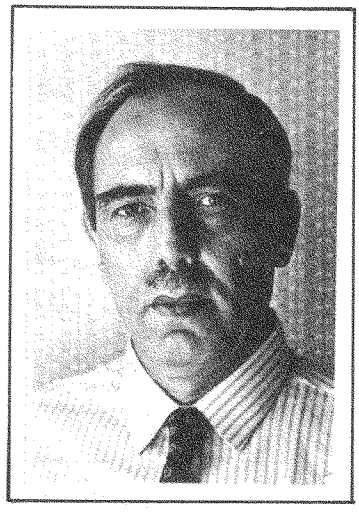

يوسف الخطيب

أجزاء مختارة من «المتوالية العربية»، تُنشر لأول مرّة(*)
[على دائرة الهَزَج. بمفتاح الرَّملَ. من مقام الكرمل]

[١]

عشيَّةَ أن أدلجتُ
في مملكة الليل السلطاني

جئتُ بابَ الليلِ،
ناديتُ على حاشيةِ القَيْلِ،
أطلَّ الحارسُ التُركيُّ من أعتمِ كُوَّه..

- مَنْ وراءَ البابِ؟
- إنسانٌ
- وماخَطْبُكَ؟
- رحَّالةُ أحلامٍ، وبي مَسُّ نُبُوَّه..

- عُدْ إلى بيتِكَ
- قد ضَيَّعني بيتي..
- إلى أَهلِكَ
- مطلوبٌ من المُفتي
- إلى نفسِكَ
- يا ليتَ.. هنا أعمقُ فجوَهْ!!..
- ما أُنبِّي سيِّدَ الليلِ إذن؟
- قُلْ لَهُ: بالبابِ من يسأَلُ
تعميرةَ أفيونٍ.. وغيبوبةَ نشْوَهْ..

- وحريماً؟..
- قمراً أبيضَ، رَجراجَ القَفا
- وكُحولاً؟
- وعفاريتَ، وغِلماناً، وشهوَهْ..

- فَلِمَن تُنمىٰ بحقِّ الزفتِ...
قد مرَّ بهذا البابِ عُشَّاقٌ، وأَفَّاقُونَ
عَدَّ الكِشْكِ في البُرغُلِ..
أَخلاطَ حُثالاتٍ.. وصفوَهْ؟

- كنتُ، حتى أَمسِ، في سادرةِ القطعانِ
أَرعى كَلأَ السُّلطانِ
لَمَّا ضَيَّعتني امرأةٌ.. في مَوْعِدٍ..
وَصَفَتْ لي جُزُرَ الواقِ إليهِ
وَهْيَ مني قِيدَ خُطوَهْ!!..

- فَلِجِ البابَ.. على الرَّحبِ إذَنْ..
أُعطيكَ إكسيرَ الفُحولاتِ
وتأشيرةَ غَوَّاصٍ إلى قَعْرِ اللَّذاذاتِ
ويقتادُكَ.. قَوَّادونَ.. في أَمتعِ خَلْوَهْ..

[٢]

فإذا ابتُليتم بالمعاصي
فانتشروا عُراةً تحت الشمس

قَمَري . . . .
والليلُ سَتَّارُ معاصينا عن الناس
وهذا المِزْهَرُ الشرقيُّ ـ ذو الإمتاعِ والإيناسِ ـ
يدعونا . . . .
فَقُمْ نمضِ إلى حانٍ، وكأسينِ . .
إلى عِلِّيَّةٍ خافتةِ المصباحِ
ننسَ الكونَ، بين الراحِ، والأقداحِ . .
ـ «لم أَبكِ . .
«هما عيناىَ زِقَّا حَنظَلٍ
«أَسْبَلَتا مايشبهُ الدمعَ . .
أَرِح بعضَكَ في حِضني
هنا يقبعُ جِنِّيٌّ على حائطِ عينيَّ
ويا عفريتَ أشواقي
أَنِلْني فِلْقَتَيْ بَطِّيخِكَ الورديِّ . .
ـ «قد أعني اللمَّى . .
«لكنَّني ـ تَعْلَمُ ـ
«لا أَسبحُ في شبرٍ من الشعرِ الغراميِّ
«ولم أُولد على الساتانِ . .
«تلك الليلةَ العمياءَ دُحرِجتُ على الخَيْشِ . .
فَقُمْ ياطالعَ البختِ . .
إلى التختِ . .
فقد تأوي إلى نومٍ عصافيرُ خيالي . .

قُل لهذا المطرِ الناحبِ في اللطرونِ
أن يسفحَ قَطْرَ الدمعِ من روحي
لكي تشربَ أحزاني شرايينُ الدوالي . .

قل لهُ . . أُعطيكَ من ياقوتةِ القلبِ
رَذاذاتِ الندى
يَغزلن في حُلْمِ العناقيدِ اللآلي . .
كَرْمُنا ذاك الذي تعصرُهُ الجِنُّ . .

استمعْ . . في الغيم إيقاعٌ . .
وفي الأنجمِ ترتيلُ ابتهالِ . .

ياسماءً شَرِقَتْ بالدمعِ
ما اللحنُ الذي يَعزفُهُ شادُوكِ:
بَوْحُ الليلِ، أم نَوْحُ التلالِ؟! . .

ما تُرى ـ ياأيها الساقي ـ هو الزفتُ
الذي تمزجُ بالكأس؟ . .
لقد مَزَّقتني خَمْراً إلى اثنينِ:
خَبَالاً . . في سماواتِ خيالِ . .

سَوِّ لي واحدةً . . نصفينِ:
نصفاً ينقُفُ الحنظلَ من جفني . .
إلى نصف جُنونٍ واشتعالِ!! . .

[٣]

عن رحلة السندباد
في أوقيانوس الأحقاف

آهِ لو جرَّعتني يا قَمَرَ الأقمارِ
نخباً من طِلى النسيانِ . .
ماذا قد جنى العُشَّاقُ
من عُقبى ليالي السُّهْدِ، والتَّذكارِ؟ . .
جوفُ الليلِ مفتوحُ الذراعين ينادينا
ومالي قَمَرٌ بالكَرْخِ . .
فاسمعْ جَوْقَةَ الشعرِ النُّواسيِّ تُغنِّينا
«رُجُوعَ الشيخِ» . .
واستلقِ إلى إزميلَيَ المُحتَرِّ حتى الجمرِ
هَبْ أني أنا المَثَّالُ ـ(تمثيلاً) ـ
وأنتَ الآن فَلْعٌ من رخامِ الشامِ
أُعطي منك لِلنُقَّادِ . . «شِعرَ الهمسِ» . .
طَعْمَ اللَّمْسِ . .
فتحاً سِندبادياً لِقاعِ الجنسِ . .
مُذْ نَعْنَشْتَ هَرموناتِ أشواقي

كأني شُحنةٌ من كهرباءِ البرقِ
لو أمْسَسْتَني
فَرَّغْتَني رَهْزاً لأقصى رِعشةِ الاغماءِ . .
هَيَّاكَ
ألا عَرَّيتَ لي أُعجوبةَ الفخذينِ :
- «أبني منهما فِسقيَّةً للشعر . .
بَضَّ الزَّبدِ :
- «أُجري فيه روحَ العشقِ . .
رَخْصَ القَدِّ :
- «أُحيي فيه غُنْجَ الشرقِ . .
وَرْدَ الخدِّ :
- «أنزو فيه كبريتَ فُحولاتي
«وأُعطي منه للنَّعمانِ . .
«للشمسِ على أشرعةِ الأُفْقِ
«إلى حُوريَّةٍ
«ضيَّعَ منها النهر ياقوتةَ مولاها . . . .
نعم . . .
ضيَّعتُ في بَرِّيَّةِ الزقُّومِ أغنامي
وأحلامي . .
وقد ضيَّعتُ لي كَرْماً على اللطرونِ
خَبَّأتُ هنا، في عِرْقِ عَينيَّ، رُضابَهْ . .

ما أنا، الشاردُ عُرياناً على التِّيهِ،
سوى حزنِ أغانيهِ
وما أغدو، غداً، إلَّا تُرابَهْ . .

عبثاً أعصر في طاحونةِ الخَيْبةِ
أعنابَ دواليهِ
فلا أحسو طِلَىً إلَّا عذابَهْ . .

قد تَغَرَّبتُ على مُتَّسعِ الأحقافِ
أغشى النارَ . . والسُّمَّارَ . .
كي أُنشِدَ أعرابَ المضافاتِ اغترابَهْ . .

عَلَّني - من بيتِ مال (الزِّفتِ) -
أرتَدُّ بسيفٍ . . وجوادٍ
عندما قَلَّدني طائِيَّةُ الأهلِ . . رَبابَهْ . .

[٤]
مشهدُ تَعريَةٍ مجانيَّة
لمفاتنِ الآثام

صُبَّ لي دِرياقةً حتى جَمامِ الكأسِ
بي قَهْرٌ لأنْ أخرُجَ من جِلدي
وأن أعرَىٰ لهذي الريحِ
إثماً تحت عين الشمس . . . .
لولا أن رأت دائرةُ الإفتاءِ
في كُولْخُوزَةِ «الطَّاحونةِ الحمراءِ»
أنَّ التِّينَ - في خَمْسِيَّةِ الخُطَّةِ -
قد أَوْرَقَ ما يكفي سَوادَ الشعبِ
سِتْراً فوق «عُضوِ الرأسِ»،
كَيْ يَرْدَعَ من زَنْدقةِ الأفكارِ
في سَلْطَنَةِ البُسطارِ؟ . .
- «بل، من أنت؟ . . ما شُغلكَ؟ . .
«ما شأنُك - نَهْشَ الذئبِ -
«تستلُّ تلافيفَ دماغي
«من نِياطِ القلبِ؟ . .

هذي ليلةٌ مدفوعة أرصِدة الأحزانِ :
كل الجُرحِ والملحِ الذي في غُربةِ الإنسانِ . .
كي نجعلَها لُلأنسِ . . للجنس . .
لشعر «الهمسِ» في أعمدة النُّقَّادِ . .
من يدري؟
فقد يأتي على الكونِ غدٌ
لا فُسحةٌ فيهِ لِشعرِ الضَّادِ . .
نثرِ الضَّادِ . .
ناسِ الضَّادِ . .
كازِ الضَّادِ . .
دعني الآن لا أذرفْ دموع القلبِ
لم أفهم لُغى الأنجُمِ في ليلٍ كموجِ البحرِ

قد أَرخى سُدولَ العُهْرِ
مَدَّ الأُفْقِ . .
غَوْرَ العُمْقِ . .
فاسْتَرْخِ ، ولا تأسَ على ماضٍ . .
ولا يهربْ بك الحُلْمُ إلى آتٍ . .
وعِشْ في بُؤبؤِ اللحظةِ . .
في اللَّـذَّةِ . .
هَدَّتني همومُ الدار . . والتَّذكارِ . .
والنسيانُ طيرٌ قيَّدتهُ الجنُّ
لا يفردُ في الناسِ جناحيهِ ـ
فلو نمضي إلى وارفةٍ من عُمَرِ الخيَّامِ
قد ننسى . .
فَدَعْ زَنْدَكَ في إبطي إلى بستانه الشرقيِّ
في البستان كوزانٍ من الخمرِ
وتَخْتانِ على النهرِ
وفوق الدَّوْحِ أطيارٌ من الفضَّةِ
في فاكهةِ الياقوتِ ـ
فلنمضِ إلى غَيْبٍ عن الدنيا . .
إلى غيبوبةٍ في الكاسِ
عن طاحونة الناسِ . .
إلى خلف انعدامِ الوزنِ . .
والذهنِ . .
وأبعد . . . . .

[٥]

لكنَّ مُنتهى دائرة النسيان
استعادني إلى مبتدأ التذكار

وأسال النجمَ . .
ففي عَيْنَيَّ منهُ
أَلَقُ الصبحِ ، وتاريخُ السَّهَرْ

فيهما غُربَتُهُ في الليلِ . .
بُقيا زورقٍ
يمخُضُها موجُ القدر

قد تَجَرَّعتُ الهوى
في الأرضِ . . والناسِ . .
وفي أمسِ الذي مَرَّ، وَمَرْ

كلّما أنساهُ . .
وُسْعَ البالِ أَلقاهُ
تباريحَ ، ونيرانَ ذِكَرْ

ما تُرى أَهْذي . .
ولا أُفقٌ على الأُفْقِ . .
ولا أرضٌ، ولا وَهْمُ بَشَرْ

أَمْ هِيَ الأحقافُ
هاتِيكَ البحيراتُ
التي ترقصُ بين الرملِ والشمسِ
على مدِّ البصر؟! . .

ليتَ، يا شاطئَ نسياني، أوافيكَ
فأقضي في ملاهيكَ
لذاذاتي، وأسفاري الأُخَرْ . .

[٦]

سَحْبَةُ مَوَّال
في مَلاحة شَلْحِ السِروال

صُبَّ لي، ثانيةً، ياسَيِّدَ الحُسنِ
وَهَبْ أني ـ على التختِ ـ
فضائيٌ من الشرقِ
ولي ما فوق أعطافِكَ صاروخٌ
كَوَمْضِ البرقِ . .
هَبْ أني علاءُ الدينِ
لي، من مَرْجِ نهديكَ، بساطُ الريحِ
والليلُ ـ (المحيطيُّ / الخليجيُّ)
يُغطِّي عَوْرةَ الأرضِ، ونحديقَ السماواتِ
وهذا الرائقُ، الزَّحليُّ، دِيناميتُ

بركانِ الفُحولاتِ . .
وها نحن . . انسلاخٌ عن مآسينا . .
وإن شئتَ: انخلاعٌ من جذورِ الذاتِ . .
أَمَّا بعدُ:
هَلاَّ خَلَعَ الصبحُ سراويلَ الدجى . .
يا ليـــــل . . .
هَلاَّ أَوَدَ الدَّوْحُ أماليدَ الغِوى . .
يا عيـــــن . .
هَلاَّ أَتلَعَ الزوجُ اليمامِيُّ على صدركَ
جِيدَيْهِ . .
فهذا الحُقُّ من طِيبٍ
وهذا من دم الرُّمَّانِ . .
أمانْ . . أمانْ . . أمانْ . .
استلقِ يا حبي
إلى جنبي
ومن يعسوبكَ البريِّ صُبَّ الراحَ
من خَدَّيكَ . .
من فيكَ، وياقوت اللمى . .

[٧]

كذلك اشتعلت قرائحُ الشعراء في تسخين قياصرةِ الصحراء

آه، يابنَ الكلبِ، لا أَقدرُ أن أَنسى . .
أَفِضْ كأسا . .
أظنُّ الحزنَ خلف البابِ تَلْتَصُّ خُطاهُ . .

غيرَ هذا البابِ ـ لو تعلمُ ـ
قد كان لنا بابُ حكاياتٍ
إذا حَدَّثتُ عنه، نَسيَ الليلُ مداهُ

ظَلَّ مفتوحَ الذراعين على الكرملِ
إلاَّ من سِياجِ الوردِ
ينهالُ على أَشرعة الأُفْقِ شَذاهُ
رِئتايَ استافَتا نَفْحَ الرياحينِ
على أَعتابِهِ الخُضرِ زماناً . .
وعصافيرُ أَغانيَّ الشجيَّاتِ، رُؤاهُ . .

ضِعتُ في هاجرةِ التِّيهِ . . أُناديهِ . .
أَلا أيتها الأطلالُ من عادٍ
أما يغضبُ في أَحقافنا الأُخرى إلهُ؟! .

قُلتُ كَلاَّ . . لا تَزِد أُخرى . .
عويلُ الأَمسِ يأتيني على الكأسِ
وَيَلْتاعُ سُدًى في غُربة الروحِ صَداهُ .

فاضَ بي السُّكْرُ . . وذاك الشِّعرُ
يستحلبُهُ «الكزلارُ» في تسخينِ مولانا . .
أما تسمعُ ما تصنعُ باللحمِ الحريميِّ يداه؟! . .

من هنا طالَ النُّواسيُّ ذُرى الإبداعِ ،
مُذ لاطَ صَبِيَّ الحانِ،
وامتصَّ، إلى حَدِّ الثُّمالاتِ، قَفاهُ . .

جرعةٌ واحدةٌ؟ . . لا بأسَ . .
أو فاسفح دمَ العنقود في حلقي . .
مَدارُ الأُفْقِ من شعبي: رُعاةٌ . . وشِياهُ . .

هل رأيتَ امرأةً، من قبلُ،
قد صَيَّرها المُفتي إلى إسفنْجَةٍ بالقصرِ
فيما قيصرُ الصحراءِ جَفَّتْ خِصْيَتَاهُ؟ . .

قلتُ يوماً لابنِ خلدونٍ
ـ (وبالقِشْلَةِ كنَّا قد تعارَفْنا) ـ
تُرى، ما مُوجَزُ التاريخِ في «مرحلة البنزينِ»
لما قال لي، مُمتَعِضاً . . «شاهٌ . . وَبَاهُ» . .

صَهْ قليلاً . . . .
عَدَساتٌ تلك دُلِّينَ من السقفِ؟! . .
وَنظَّارات مَنْ تلك المُشِعَّاتُ كَصَرصارينِ
والحائطُ في غاشيةِ الليلِ انتباهُ؟!

[٨]

ليس يُفتى في الخمر
ومالِكٌ يُغتال في البيغال

اِمنع الخمرةَ عنِّي . .
في فمي أَلْسِنَةٌ تهذي
وفي صدري كلامْ

طائري الناريُّ
قد فَيَّأتُهُ صدري
وذَهَّبتُ له السجنَ، ونامْ

مُرسَلُ العشقِ
يُغنِّي النارَ إن غَنَّى
يُذيبُ الصخرَ إن فرَّ وحامْ

اِمنع الخمرةَ . .
في قلعةِ وجداني
رُؤىً أَسرى، وأشواقٌ حرامْ

فَرَسي بَرِّية الصهلةِ
رعناءُ
جُموحُ التَّوقِ إن أُرخِ اللجامْ

إنَّ في رأسي دُوارَ البحر . .
ما ذَوَّبتَ لي في الكأسِ ؟
هل هذا نبيذُ القدسِ . .
أم جرح السلامْ . .

غَيَّبتْني جُرعةٌ
في مُطلقِ الصَّحْوِ . .
أزاحت يدُها سِتْرَ الظلام

خَلِّني في الناس . .
في الإيناسِ . .
في اللُّعبةِ . .
في اللَّعنةِ . .
في بحر القتام . .

واسقني ماءً . .
تُرى، ما يُوسِمُ الكَرْمُ
وما تُشعِلُ في الرأس المُدام . .

لا تَزِد أُخرى . .
بل اثنين . .
على الدَّيْنِ . .
اسقنيها ألفَ جامْ . .

[٩]

فهل تنكفئُ إلى باطنٍ
وأنت افتضاحُ كل ظاهر

هَبْ إذن أنَّك حَوَّاءُ الغِوى
وأنا آدمُ آثامي اللئيمهْ
ولقد أُعطِيتُ فِردوساً
فبادلتُ به شيخَ الشياطينِ جحيمَهْ
ما على الملاَّحِ من غَمْرِ الدجى
إن كان يستبطنُ في الصدر نُجومَهْ
ها أنا أُوغِلُ في مُستنقعِ السُّكرِ
إلى منزلةِ الطُّهرِ الحميمهْ
إن تَغُصْ في بحر أحزاني، على قلبي،
تَجِدْ لُؤلؤةَ العشقِ اليتيمهْ
رَضِيَتْ مجهولةَ الأعماقِ،
لم تَطْفُ على الرغْوةِ في الريحِ العقيمهْ
فاسفح الدَّنَّ على حَلْقي
يَفِضْ حلقي على أُذْنيكَ أحجاراً كريمهْ
قصصاً تُحكى . . ولا تُحكى . .
وأَضغاثاً بلا نومٍ . . وأسفاراً قديمهْ . .

[١٠]

عندما استغلظني الكزلار في قُبحِ مُنادمةِ السلطان

قالت الضِّفدعُ قولاً
فسَّرتهُ شُرطةُ الأخلاقِ
لما حارَ فيه الحكماءُ

في فمي . . وِيسكي . .
فمالي وَطَرٌ في الصبحِ يَعنيني
إذا كان سَيُعميني الضياءُ . .

خَلِّني شَرنقةً في الطينِ
هذي سُحُبُ الطاعونِ
يَحثُّوها على الشرقِ الهواءُ

أيُّهذا الليلُ . .
أحرى أن تغنِّيكَ الصراصيرُ
لقد نَيَّفَ عنها الشعراءُ . .

العكاكيزُ على الدربِ . .
الأدِلاَّءُ . . إلى هاويةِ الغيبِ . .
ويُحكى . . أنبياءُ . .

قم بنا يا سيدي للتختِ
نشلحْ يَعْرُبيَّ الكبتِ
عاش الليلُ، والصابونُ . .
ولتحيا النساءُ . .

ما لنا الآنَ وجوعَ الروحِ . .
يا روحي . .
وبي جوعٌ إلى اللحمِ ،
ولي في دَسَمِ الشحمِ اشتهاءُ؟

جَدَّتي الأولى؟! . .

نعم، أعلمُ، جِنِّيَةُ إعصارٍ
لها الهيجاءُ، والسيفُ المُضاءُ . .

ثم أفتى كاهنُ الكزلارِ
أن «البنتَ» . . بيتُ العارِ
فانسدَّ على «الحُسنِ» الخِباءُ . .

شَقْلَبَتْ رأسيَ كأسٌ . .
وورائي . . صار قُدَّامي . .
وأعياني من السُّكرِ، أمامٌ، ووراءُ . .

فدعِ الخمرةَ في الدَّنِّ . .
تَلاشيتُ . . تلاشيتُ . .
مدى الكونِ، خُفوتٌ، وارتخاءُ . .

كلّما رقَّاصَةٌ أيْطَلُها اهتزَّ
ووِركاها . . تَجَلٍّ . . واجتلاءُ

إنني أُشهِدُ حُزنَ الليلِ
كم أغدو، على الكأس، ثقيلَ الظِّلِ
حتى يَتسلَّى الخُلفاءُ . .

قُل لمسرورٍ . . يَقُلْ في أُذْنِ هارونٍ . .
وراءَ البابِ قد أضحى النُّواسيُّ . .
نُواسِيَّين . .
لا يُحصى لديه الرُّقعاءُ . .

هيكل النُّقَّاد ماخورٌ . .
وطعم الشعرِ . . قصديرٌ . .
وحتى صِلَةُ الحرف بِتاليهِ . . بغاءُ . .

ما أنا من أهلِ هذا العُرسِ
هُم «دَيْلَمةُ» الفُرسِ
سَوَاءانِ على طَقْسِ زَرادِشْتَ:
زَفافٌ . . وخِصاءُ!! . .

[١١]

فلما أن اختفت اليابسة من وراء ظهر الملاّح العجوز.. وركب أعالي البحار على خشبة خلاصه المنجورة من جبل الزيتون.. فلقد ظنَّ، هكذا، أنه ابتعد إلى حدّ الأمان عن كل حَيْسُوبات الشهيق والزفير، وعن جميع مجسَّات المشاعر والأفكار، وليس ثمّة من يُحصي عليه أنفاسَه غير أغاني الصمت المتلألئة في صفاء النجوم، فعندئذ أخذ يُرخي بعضَ شيءٍ من لجام مُهرة روحه الجامحة حتّى الجنون..

لا يَرُعْكَ الليلُ، يا مولايَ،
هذا القَرْعُ خلف البابِ
إيقاعُ البساطيرِ التي يَحزِقُها السلطانُ
«ذو التوحيدِ في مَشْيَخةِ الأوقافِ
«والتعديدِ في أجنحةِ النِّسوانِ..
«ذو اللِّحية من أصباغ باريسٍ
«وفيتامينِ ماءِ الظهر من تِقْنِيَّة الألمانِ..
إيقاعُ البساطيرِ التي شُدَّتْ على السِّندانِ
من جِلدَةِ رأسِ الشعبِ..
قُلْ مِن عنكبوتِ الرفضِ، واللاخَفْضِ
في أعشاشِ سقفِ المُخِّ
حتى مُستَقَرِّ الوَقْبِ..
أو ماذا، إذنْ، ينتعِلُ الضُبَّاطُ
مُذْ عادوا حُفاةً من رَحى الميدانِ؟!..
هذي آيةُ العصرِ النحاسيِّ،
استمِعْ:
«خَبْطِهْ أَدَمْكُنْ» تَسحقُ الأسفَلْتَ
في أقصى مدىً عن مُصطَلى النيرانِ..
قُم فاشهدْ، خفيفَ الظلِّ،
قد هَلَّت أخيراً فُرجةُ الفُرجاتِ:
أحلى أطقُمِ العسكرِ
يعلوها نُحاسُ الكونِ في الساحاتِ..
كلاَّ.. ليس هذا مدفعَ الإفطارِ..
هُم «طُبْجِيَّةُ الأفراحِ»
يَزَّوْزَقُ منهم صدرُ هذا الليلِ بالنيرانِ..
دَعْنا الآن نهتفْ في عراءِ الصَّمتِ
مَدَّ الصوتِ:
«عاشت هيئةُ الأركانِ..
«عاشت هيئةُ الأركانِ..
«عاد اللاتُ.. والعُزَّى.. على بَدْءِ..
بوادٍ غيرِ ذي زَرْعٍ..
ولم ترجِع «مَناةُ» من سِباخِ المَنْيِ
. . . . . .
- «كَلاَّ.. كُلْ هواءً أنتَ..
«أم تحسبُ أن تَعْتَعَني السُّكْرُ؟..

- «أَلَم يُلهِمْكَ جِنِيُّ قَوافِيكَ
«بأن الليلَ نَقَّالُ حِكاياتٍ،
«وَلِلحيطانِ، عَدَّ الكِلْسِ، آذانُ؟..

- «إذن، ما كان شيطاني لِيستأهلني
«ناراً.. وإعصاراً..
«على أَوْخامِ هذا الليلِ
«بل أوحى إليَّ الرفضَ، والعصيانَ
«لا من جِنَّةٍ في «عَبْقَرِ» الصحراءِ
«بل من جذوةٍ في جوهرِ الإنسانِ..
«حتى صِرتُ - من ثغري، إلى البلعومِ -
«لي ألسِنَةٌ تفضحُني، سبعونَ..

- «قُل سبعين توقيفاً
«بتَخشيباتِ ما قد أنجز الوالي
«فلو أَعْيَيْتَ، في لُغزٍ، ولاةَ الأمرِ
«يستفتون «قُوميسارَ» أَمْنِ الشعرِ..
- «من هذا؟..

- «على ما قد رَوى ياقوتُ: قُمْعُ الدولةَ
«المُسَرْبِلُ الدستورَ.. والبشكيرَ..
«في قِيطانِ سروالِ..

- «ألا أَفْصَحتَ؟..

- «حتى الموتِ، يَخصي عَقْلَكَ الخِصيانُ
«أدنى بِهِ العالي..

- وفي ماذا بِحقِّ الزفتِ..
«ماالسرُّ الكَهانيُّ.. الغَنُوصيُّ..
«الذي ما زال مستوراً، وقد أفشيتُ؟..
«هل إلَّا رفعتُ الصوتَ:
« - لا حاخامَ في الإسلامِ - ؟..
«هل إلَّا ذَبحتُ العِجْلَ
«فيما صادفَ «الأضحى» نَهارَ السبتِ؟..

- «ها إني بَراءٌ منكَ..
«فاستقبل، إذن، دَوْرِيَّةَ التفتيشِ
«عن مطلوبةِ الآثامِ، في هَرْطَقَةِ الأحلامِ
«فيما أنتَ، جَهْرُ النُّورِ، والجُمهورِ
«قد جامَعْتَ عُرْيَ الفكرة العذراءِ
«فوقَ الحَدِّ..
«حتى صِرتَ في دائرةِ الإفتاءِ تحت الحَدِّ..

- «لا واللهِ.. والكعبةِ.. والقرآنِ..
«أو فاسأَل قُضاةَ
«الأمرِ» بالبَلُّوطِ
«والنَّهْيِ» عن المشمشِ

«في قَرْمَطَةِ الأحساءِ، أو مُرْتَدَّةِ الظهرانِ،
«لم أَنبِسْ بأُنثى شَفَةٍ
«عن «أُكْلِروسِ» النارِ، والجَنَّةِ،
«بَيَّاعي صكوكِ العَفْوِ، والبنزينِ، والحرمانِ،
«إلّا ما وَشَتْهُ الريحُ حتى صَمَّت الآفاقَ..
«أو عن «قادةِ» الإسلامِ..

« - قوَّادِيهِ، من عُرقوبِهِ، في مَخْدَعِ التَّوراةِ -
«والنَّاهِينَ بالكُرباجِ»..
«عن مَعْصِيَةِ «المكياجِ»..
«أو فاسأَل سُعاةَ الرُّومِ.. والمُوسادِ..
«ما بين الصَّفا والمَرْوِ..
«قد ضَيَّعتُ، يابنَ الكلبِ، جَغرافِيَّةَ الأقصى

«فما شأني بِأُحنُوطاتِ سيناءٍ لدى الوالي
«ومازَّحلقتُ في حَرْفٍ على أَثلِجةِ الجُولانِ؟!..

- «بل أنت الذي سَوَّيتَ طعمَ الحرفِ
«آناً.. عَسَلاً يجري
«على الأفواهِ من دَهماءِ مولانا..
«وآناً.. عَلْقَماً..
«يَحْتَزُّ من حُلقومِهِ السامي كَحَدِّ السيفِ..

- «قُل، لا بأسَ، يا مولايَ
«هَبْ أنَّا استعدنا رُشْدَنا المفقودَ
«من راحٍ.. وأقداحٍ..
«فهذا أنتَ.. «ريتا بنتُ راكاحٍ»..
«وتَحشُو مَخْزَنَ الرشَّاشِ قُدَّامي..
«وتصطادُ الفِراخَ الزُّغْبَ.. قُدَّامي..
«وتَمْتصُّ ارتعاشَ الجرحِ
«من أَوْرِدَةِ الأطفالِ.. قُدَّامي..
«إذنْ، أَنتِ التي أَشْمَتِّ فِينا
«كلَّ شُوفينِيَّةِ العُذَّالِ، يا قحبةَ أحلامي..
«فهذا بيننا هَجْرٌ.. رِفاقيٌّ..
«إلى أَن تنفُضي أَدخِنَةَ البارودِ
«عن أَزرارِ أكمامي..

- «هُنا - لا شكَّ - قد وافَيْتَ سَفْحَ الطُّورِ
«مُذْ أَوغلتَ، حتى الموتِ
«في سِرداب رأسِ الحَيَّةِ المحظورِ..

- «لكنِّي عَميدُ القلبِ، يا مولايَ،
«إذ أَنتَ العِمادُ الركنُ للعُشَّاقِ..
«ماذا قُلتُ في الممنوعِ
« - من أرشيفِ لاظوغْلي،
«إلى «سِيمْبُوزْيَمِ» الجُمَّيزِ في بُولاقِ -
«إلَّا أن رَتَقْتُ النعلَ في قِرْشٍ..
«وفي قِرْشٍ.. لعبتُ النَّرْدَ بالمقهى..
«وفي تعريفةٍ - إلَّا - شربتُ الشايَ؟..

- «خَلِّ الآنَ [إشكالِيَّةَ] الشعرِ السياسيِّ
«لِمِهْيارَ الدمشقيِّ . .
«ودعنا نستعدْ غيبوبةَ النسيانِ
«بين الهمس . . واللمس . .
«وفي «السِّكَسِ» على مرأىً من الجدرانِ . .

- «سَمْعاً، يا بديعَ الحُسنِ . .
«لكنِّي اجترعتُ الخمرَ، ملْحَ البحرِ

«حتى صِرتُ، بين الوَعْيِ، واللاوَعْيِ،
«مَكُّوكاً . .
«ومن سابعةِ الأَرضِينَ، تحتَ الأرضِ،
«حتى فَلَكِ المَرِّيخِ . . صُعلوكاً . .
«خليعاً من كِلا الرَّبْعَينِ:
«لا في مازِنٍ أُنْمى إلى شيخٍ،
«ولا ذُهْلِ بَنِ شَيْبَانِ!! . . .

(*) من مخطوطة الأعمال الشعرية الكاملة بعنوان «قصائدي».

صدر حديثاً

المنام

مفكرة فيلم

محمد ملص

قال فيصل: «زي ما بيحكوا لنا أهالينا كيف نزحوا من فلسطين بالثمان والأربعين، تماماً، شفت إنه إحنا، أهالي المخيَّم، راكبين بشاحنات وحاملين أغراضنا، بس قال راجعين على فلسطين. بعد ما قطعنا «الناقورة» شفت بحيرة كبيرة، تطلَّعت وسألت أبوي عنها، قال لي «واك يا بابا، هاي طبريا، مش عارفها؟»

«حسّيت لحظتها من كلام أبوي إنه انشرح صدري، وصرت أتطلَّع، وشفت من الشاحنة الماشية الأرض خضرا خضرا، وكلها شجر زيتون.

«وبالمنام بس، وصلنا على فلسطين، ما شفت إلا كل أهالي المخيَّم صاروا يتفرّقوا وصار كل واحد يروح على بلده. . . يلِّلي من حيفا راح على حيفا، ويلِّلي من يافا راح على يافا. . . وشفت حالي بقيت لوحدي، وكلّ أصحابي يلِّلي معاي بالمدرسة، راحوا. حسّيت بوحدة شديدة. صرت أقول لحالي: يا ريت نرجع نحن يلِّلي عايشين بالمخيَّم نعمل بلد صغيرة، بلد أو قرية أو مخيَّم، يعني شيء زيّ شاتيلا يلِّلي كنا عايشين فيه. . . ورحت دغري أدوّر على أصحابي تقول لهم: تعالوا نعمّر بلد بقلب فلسطين تجمعنا مع بعض وتكون زيّ المخيَّم، بس لحظتها فقت.»

منشورات دار الآداب